مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 14 / العـدد 02 / سبتمبر2020 / ص ص 09 - 20

Journal home page: http://rss.lagh-univ.dz/
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

الثابت و المتغير في زواج القرابة بالجنوب التونسي: دراسة ميدانية لبلدة القصر قفصة

Stability and change in endogamy in Southern Tunisia: a field study in Elgsar Gafsa

د. محمد أحمد [1]

[1] المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بقفصة (تونس)، afif_bia@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2018/11/04 تاريخ القبول: 2020/08/30 تاريخ النشر: 2020/09/13

ملخص:

تجسد هذه الدراسة محاولة أنتروبولوجية من أجل فهم الحياة الثقافية للفاعلين الإجتماعيين بمنطقة القصر بالجنوب التونسي، حيث تسعى هذه الدراسة إلى فهم علمي للرمزية الإجتماعية و الثقافية التي إرتبطت بأنماط العلاقات الزيجية السائدة (الزواج القرابي و الزواج الخارجي)، مع تركيز هذه الدراسة الميدانية على الزواج الداخلي الذيو الذي يتجلى بالأساس داخل المجموعات التي لازالت تتمسك أكثر بالقيم القبلية و التي لازالت تطمح إلى المحافظة على هويتها الجماعية التقليدية. بمعنى أن هذه المقالة الأنثروبولوجية تسعى إلى فهم التصورات و الإعتقادات التي تحملها كل من فرقتي العكارمة و القصارة حول الزواج القرابي و مدى قدرته على الإستمرارية داخل هذه الفضاء الحضري.

كلمات مفتاحية: القبيلة، القرابة، الزواج القرابي، التغير الثقافي.

ABSTRACT:

This study represents an anthropological attempt to understand the cultural life of social actors in the area of Elgsar in southern Tunisia. This study aims at a scientific understanding of the social and cultural symbolism associated with the prevailing patterns of marital relations (endogamy and exogamy) Which is mainly manifested within groups that still hold to tribal values and aspire to preserve their traditional collective identity. This anthropological article seeks to understand the perceptions of the two main groups: Al-akerma and Al-gsara on endogamy and its ability to continue within this urban space.

Keywords: Tribe, Kinship, Endogamy, Cultural change.

- المؤلف المرسل: محمد أحمد، الايميل: afif_bia@yahoo.fr

1- مقدمة:

يتطرق هذا البحث الميداني إلى دراسة العلاقات الزيجية التي عرفها تاريخ أهل منطقة القصر (الضاحية الجنوبية لمدينة قفصة التونسية) مع كشف التغيرات التي عرفها هذا النمط من العلاقات الإجتماعية عبر مختلف الأجيال التي تعاقبت فوق أرض هذه البلدة المتاخمة لواحة قفصة (مع التركيز خاصة على الفاعلين الإجتماعيين من ذوي الأصول العكرمية و القصرية و الذين يمثلون معا الأغلبية الساحقة لسكان المنطقة).

إن علاقات القرابة من المواضيع الأساسية التي تناولها الأنثروبولوجيون بالبحث و التحليل، فهي تساهم في خلق وعي إجتماعي جديد يحل محل الوعي الإجتماعي العديم و يساير التطور في المجتمع، أي أن مجهودنا في هذه الدراسة الأنثروبولوجية الميدانية التي أنجزت حول المجتمع المحلي القصري بتجسد بالأساس في كشف طبيعة العلاقات القرابية التي بيّنت الكثير من الدراسات الإجتماعية أنها وليدة التزاوج التاريخي بين التقاليد و القيم الحضارية التي سيطرت على المجتمع التونسي في الماضي و الظروف المادية و عوامل الهجرة و العمل التي ساهمت في تغير العلاقات القرابية.

و في هذا الإطار يحط بنا الرحال عند السؤال الذي يتعلق بدراستنا الميدانية حول هذا الموضوع (زواج القرابة): فهل يمكن القول بأن عكارمة القصر (أهل الزاوية) قد تمكنوا من المحافظة على أصلهم و نسبهم الشريف من خلال إعتماد" إستراتيجية الإنغلاق الإجتماعي و الثقافي" ضمن علاقاتهم بسكان "القصارة" (و المقصود بهم هنا السكان الأصليين للمنطقة) وبالتالي رفض الترابط الزيجي معهم، أم أن التغيرات الحضرية ألزمت هذه المجموعة السكانية قوانين جديدة حتمت عليها التلاقح البيولوجي مع بقية الأصول الأخرى ؟.

بمعنى أن الفرضية الرئيسية التي سيحاول هذا المبحث الإجابة عنها تتمحور حول مدى قدرة الزواج الداخلي على التواصل و الإستمرارية ضمن التحولات الإجتماعية و الثقافية التي عرفتها منطقة القصر قفصة، بمعنى هل أن تفكك البنى القبلية التقليدية فسح المجال لظهور نمط جديد من العلاقات الزواجية يقوم على أسس أخرى غير أساس القرابة الدموية ؟ كما يمكن أن نتساءل عن طبيعة العلاقة التي ربطت تاريخيا بين القصارة و العكارمة من خلال القول: هل إستطاع الزواج الخارجي أن يحتل موضعا هاما ضمن شبكة العلاقات الإجتماعية في القصر رغم ما تميزت به العلاقة بين الطرفين من "عدائية" ثقافية قامت أخاصة على أسس التفرقة في مستوى الأصل و المستوى المادي و اللهجة و غيرها...؟

و تكون الإجابة من خلال الفرضية التالية التي ترى أنه يمكن الحديث عن تغير واضح في صلب العلاقات الزيجية لدى العائلة القصرية، بمعنى غياب شبه تام لزواج القرابة (الزواج من إبن أو بنت العم) داخل النسيج الإجتماعي القصري و تعويضه بالزواج الخارجي كنمط حديث من العلاقات الإنسانية.

2- مفاهيم الدراسة

إن الباحث الاجتماعي وهو بصدد رصد الظواهر الاجتماعية عبر التسلل إلى قوانينها الداخلية والكيفية التي تشتغل بها يجد نفسه ملزما بالاستنجاد ببعض المفاهيم الاجتماعية التي يستعملها كأدوات للتحليل مستثمرا إياها حتى يصل الى نتائج تكون مرتبطة بمدى إجادته إستعمال هذه المفاهيم فكلما كان الباحث حريصا على إعطاء المفهوم

ما يستحقه من التفسير والتوضيح كلما كانت دراسته أكثر دقة و علمية و أقل عمومية و سطحية و "المفهوم هو صياغة نظرية مجردة تستعمل كأداة لتفكيك الظاهرة. ولاعادة بناءها ضمن سياق البحث " (Zgal1992, p, 25)

والمفاهيم الاجتماعية مختلفة من حيث دورها في البحث الاجتماعي و اختلاف الأدوار نابع من وجود نوعين من المفاهيم:

- المفاهيم العامة وهي المفاهيم التي تتضمن السلوك الإنساني بشكل عام ولا تخضع لمجتمع إنساني واحد أو فترة زمنية محددة أو بقعة جغرافية محدودة الأبعاد فهي ليست مغلقة بل مفتوحة.
- المفاهيم الإجرائية وهي المفاهيم التي تشير إلى زمان ومكان دراستها لذلك تكون مفاهيم خاصة ومتميزة ومؤقتة لأنها تتوقف على عوامل ظروف مجتمع الدراسة الخاصة و مؤقتة بسبب تغير المجتمع من فترة زمنية إلى أخرى وإختلاف المجتمعات بعضها عن بعض في نفس الفترة الزمنية فالمفاهيم الإجرائية نابعة من واقع التجريب الميداني(معن 1983، ص 33).

2-1- مفهوم القبيلة

يقول ابن منظور في "لسان العرب":"ابن الكلبي يرى أن الشعب أكبر من القبيلة ثمّ العمارة ثم البطن ثم الفخذ.وأشتق الزجاج القبائل من قبائل الشجرة أي أغصانها و يقال قبائل من الطير أي أصناف و كل صنف منها قبيلة.... و القبيلة هي الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعدا من قوم شتّى كالزنوج والروم والعرب وقد يكونون من نحو واحد و ربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة"(ابن منظور1976، ص 541).

و يستند هذا التعريف خاصة على فكرة الجد المشترك أو النسب المشترك لنفس المجموعة البشريّة كما ورد تعريف لمصطلح القبيلة ضمن الموسوعة العربية أنها"مجموعة من الناس يتكلمون لهجة واحدة و يسكنون إقليما واحدا مشتركا يعتبرونه ملكا خاصا بهم "(الموسوعة العربية الميسرة 1987 ص56). و لفت هذا المصطلح إنتباه الدراسات الكولونيالية في المغرب العربي و منها دراسة روبار مونطاني الذي لا يحصر تعريف القبيلة إنتماء الأفراد و الجماعات لجد مشترك فحسب و إنما يجب أن نأخذ في عين الاعتبار كذلك فضاء العيش و العادات و التقاليد و العرف الذي يربط أفراد الجماعة و كذلك التركيز على المجال الجغرافي أين تستقر المجموعة القبلية والذي يتركز عادة حول سوق أسبوعية أو ضريح لولي صالح.

كما تفرق آن كريستين تايلور بين مفهومي الإثنية و القبيلة بقولها:" إن مصطلح الإثنية يفيد في الإستعمال العلمي السائد مجموعة ثقافية و إقليمية لها حجم معين، أما مصطلح القبيلة فهو يدل على المجموعات المتميزة بالضعف و صغر الحجم.(Taylor1991,p44)

كما لا يمكن أن نغفل على أعمال جاك بارك حول المسألة القبلية في منطقة المغرب العربي و خاصة دراسته لقبيلة "سكساوة "فقد إستطاع بارك أن يوظّف ضمن تمشياته المنهجية كما رفض جاك بارك إستناد المجموعة القبلية في تاريخها إلى مقولة الجد المشترك و أعتبر أن الإلتجاء إلى الجد المشترك ما هو إلا مجرّد وهم فسّره بالإنتشار المبكّر لفروع قبيلة أساسية في سائر مناطق المغرب (Berque1953, pp26-27).

يتميّز المجتمع العربي عموما و التونسي خصوصا ببناء قرابي متدرّج ,إذ كانت القبيلة تشكّل أعلى المستويات القرابية وكل قبيلة تنقسم إلى عشيرتين أو أكثر. والعشيرة الواحدة كانت تقسّم إلى فرقتين أو أكثر، والفرقة تتكّون من جماعتين أو أكثر و الجماعة الواحدة كـانت تسمّى بالفخذ الذي يشير إلى جماعة قرابية صغيرة أقل من البطن الفخذ ينقسم إلى حمولتين أو أكثر، والحمولة تتكوّن من عائلتين ممتدّتين أو أكثر، و كانت القبيلة عادة تخضع إلى جدٍ مشترك يحمل إسم جميع أعضاءها...و بما أن الأسرة التقليدية تأثرت بالتحوّلات التي شهدها المجتمع الريفي فإن الزواج سيتأثر حتما بالتغيّر الذي شهدته الأسرة و يتمثّل هذا التغيير في بروز الزواج الخارجي(بوغانمي 2001/2000، ص68).

2-2- مفهوم زواج القرابة:

في الكثير من البلدان والأقاليم العربية الإسلامية... يسود هذا النوع من الزيجات في الأرياف بالخصوص لاعتبارات قبلية نظرا لاستمرار النظام العشائري و كذلك لاعتبارات اقتصادية. حيث نجد أن بعض الأسر الغنية برؤوس الأموال والممتلكات لا تريد أن يشاركها غريب في ثرواتها (عدم تفتيت الثروة) أما الإعتبارات الاجتماعية و النفسية..فيتعلق الأمر بالزواج الذي تحسم فيه الأمهات أو زوجات الأب حين تلزم ابنها بالزواج من إبنة أختها أو أخيها أو أحد أبناء عمومتها أما حبا فيهم أو إحتضانا لقريبة يتيمة أو خوفا من العروس الغريبة التي ستنزع منها سلطتها على مملكتها وتتربع على عرش البيت فتتحكم في كل شيء لان هذا الصنف من النساء يريد الاستمرار في فرض السيطرة داخل البيت ولا يقبل المنافسة وهناك من تزوج ابنها لتكون العروس خادمة تقوم بأعمال البيت أو قد يكون الابن معاقا فتبحث له عن عروس من الحلقة الضعيفة - الأقارب الفقراء - لتضمن طواعيتها وخضوعها ولترعاه و تنجب له أطفالا يرعونه في كبره وهي حالات شائعة في الأرياف خصوصا.

وقد ورد في القصيدة الشعبية بالجنوب الغربي التونسي تأكيد على حاجة القبلية إلى زواج داخلي (سواء كانت القرابة بعيدة أو قربية) من أجل المحافظة على ممتلكات المجموعة المادية و المعنوية، و حاجة القبيلة كذلك إلى تقسيم الوظائف و الأعمال بين أبناءها لأنهم القادرين لوحدهم على هذه الأعمال إنطلاقا من إدراكهم لخصوصية القيم و المبادئ السائدة داخل قبيلتهم. و تؤكد بعض الأبيات الشعرية هذا الموقف القبلي أو العشائري من الزواج الداخلي من خلال قول الشاعر:

زوز يجونا صيادة و زوز يجونـا قيادة

وزوز يقرو القرآن و الآخر يسرح بالبقرات(العيساوي1986/1987، ص30)

إن القرابة تفرضها عوامل أمنية بالمعنى السوسيولوجي، فضعف إمكانيات الإختلاط و ضعف فرص الإختيار و طبيعة الملكية الهشة تفرض اللجوء إلى الزواج القرابي، إن طابع الفضاء المتصف بالإتساع يؤدي إلى البحث عن القرابة جلبا للحماية و الأمن. وهذا ما يؤكده التلازم الملحوظ بين ظاهرة التشتت في السكن الجماعي و بين حضور المعطى القرابي العائلي، و بالمقابل فإن التحضر في الجهة يساهم في إضعاف ظاهرة زواج القرابة بسبب تداخل المصالح و توسع العلاقات و ظهور القيم الجديدة(بوطالب2002، ص 455).

و بدأ هذا النمط من العلاقات الزيجية (الزواج الداخلي) يعرف بعض مظاهر التفكك و الإضمحلال داخل المجتمعات العربية، كما أصبح يسمح المجال لبروز الزواج الخارجي الذي يقبل التعامل مع "الآخر الغريب " ، وهذا مرجعه تفكك البنى القبلية التقليدية و معها إنحلت العائلة الموسعة لتحلَ محلها الأسرة النواتية الضيقة. إن زمن هذه القبائل قد إنتهى و لم تبق في البادية

إلا القليل منها، يقول الشاعر الشعبي في إحدى قصائده حول القبيلة في الجنوب الغربي التونسي:

"فات و قتها تعدّى زمان كحيلة و في البادية قعدت عروش قليلة"(العيساوي مرجع سابق، ص 35)

2-3- مفهوم التغير الثقافي

إن كان علماء الإجتماع في يرون أن التغير في الثقافة وفي البناء الإجتماعي يشكل أحد ميادين علم الإجتماع المعاصر فإن عدد آخر منهم و خاصة أصحاب المدرسة الأنقلوسكسونية إستخدموا تعبير"التغير الإجتماعي"و ذلك للدلالة على ظاهرة التحول والنمو والتكامل والتكيف والملائمة...وهي العمليات التي يتعرض لها كل نسق ثقافي و من ثم فلا بد عند دراسته التغير الثقافي أن يكون ذلك في النطاق الذي ينبع فيه ذلك التغير من التنظيم الإجتماعي أو يؤثر فيه(السويدي 1991، ص108).

كما يرى السويدي أن هناك بعض العناصر الثقافية تميل إلى التغير أكثر من غيرها من العناصر الأخرى وذلك يرتبط بطبيعة المجتمع و طبيعة الثقافة السائدة داخل البناء الإجتماعي فعناصر التغير التكنولوجي و المادي يمكن أن تتغير بسهولة مقارنة بعناصر أخرى مثل نظام الأسرة و القوانين الاجتماعية....

إن الريف التونسي يشهد بإستمرار تغيرا خاصة في مستوى حياته الإقتصادية رغم محافظته على توازنه الإجتماعي والثقافي، حيث "حصل تغيير في مستوى البنى الأساسية وقطاع الخدمات أكثر من حصوله في مستوى قوى وعلاقات الإنتاج، و تبدل في مرتكزات المكانة الإجتماعية في الريف التونسي و تفجير حركية في أسس الإندماج.فقد أدى تدخل الدولة منذ بداية الإستقلال إلى شمولية المراقبة وإفتكاك مشروعية السلطة المحلية من المشائخ و الزوايا والقبائل، وقد أدت الوظيفة و التعليم والإخراط السياسي إلى حصول تبدلات جوهرية في مراكز النفوذ السياسي و الإقتصادي في الريف.(بوطالب 1988، ص108).

3- الدراسة الميدانية:

تقدم هذه الدراسة (التي أجريت سنة 2016) محاولة منهجية في الربط بين ما هو إجتماعي و ماهو رمزي دلالي ضمن مقاربة إنثروبولوجية تهدف إلى كشف الحقائق المتصلة بالحياة اليومية لأفراد العينة الممثلة، لسكان بلدة القصر بقفصة. إن بحثنا العلمي يندرج ضمن مقاربة أنثروبولوجيّة ثقافية تهدف إلى الإلمام ببعض الظواهر الإجتماعية و الثقافية المتعلقة بمجتمع الدراسة، و خاصة الرموز الثقافية الخاصّة بتصورات الأفراد و ممارساتهم.

و قد إتسمت الأدوات البحثية بالتعدد و التنوع تماشيا و طبيعة الموضوع التي تطلبت الإستنجاد بالكثير من التقنيات الميدانية من أجل الإلمام بمختلف الجوانب الإجتماعية و الثقافية و النفسية لظاهرة زواج القرابة في منطقة القصر قفصة، و أمام هذه الضرورات وقع الجمع بين المنهج الكيفي و المنهج الكمي ضمن العمل الميداني التجريبي.و تمثلت الأدوات التقنية الكيفية في: المقابلة و دراسة الوثائف و إعتماد السيرة الذاتية لبعض الشخصيات المهمّة، و قد

هدفت هذه الوسائل البحثية إلى التجميع المكثف للبيانات من خلال معايشة الواقع و الإهتمام بالمعنى و الفهم أكثر من الإهتمام بالسبب و النتيجة.

تضمن هذا المبحث دراسة ميدانية لعينة من سكان القصر قفصة، وقد مثلت استمارة الاستبيان (كتقنية بحثية كمية) آداة للتواصل مع الفاعلين الاجتماعيين و قياس المواقف والتصورات لديهم، وكشف مختلف الرموز التي تحملها الذاكرة الفردية والجماعية حول التنظيم القبلي بالمنطقة و العلاقات الزيجية السائدة و غيرها من المسائل التي تهم هذا البحث الأنثروبولوجي،الاستجوابات خصّت عيّنة ممثلة وقع إختيارها بطريقة عشوائية مقصودة تضمنت 200 مستجوب يتوزعون بين متغيّري السن والجنس كالآتي:

أثبتت نتائج البحث الميداني أن ظاهرة الزواج بجهة الجنوب التونسي و بمنطقة القصر خصوصا قد عرفت تغيرا واضحا في مضمونه و في الأساس الذي يقوم عليه، فبعد هيمنة الزواج العائلي القائم على القرابة الدموية و لفترة ليست بالبعيدة، نلحظ إنتشارا واسعا للزواج الخارجي الذي فرضته تحولات الحياة المعاصرة.

فقد إتفق عدد هام من أفراد العينة المبحوثة (40% من الإناث و37.5% من الذكور) على وجود علاقات زواجية مع " البرّاني " كما إتفقوا على على فكرة موحّدة وهي أن العلاقات الزواجية بين العكارمة و القصارة أصبحت قوية جدا و أن حجم هذه العلاقات يشهد نموا مستمرا لتغير العقلية السائدة و ظهور قيم جديدة تحكم هذا المجتمع المحلي، كما أكدت نسب لا بأس بها من العيّنة (15% من الإناث و20% من الذكور) على وجود ترابط زيجي نسبي بين "الشرفة" و "البلدية"، و تعني هذه العبارة أن الحياة اليومية في القصر تشهد علاقات طبيعية بين مختلف الفئات الإجتماعية سواء على مستوى الزواج أو غيره من العلاقات الإنسانية، أي أن أن الحياة الإجتماعية تشهد مزيدا من الإنفتاح بين المجموعات السكانية للقصر، وهو ما يفرز مظاهر للتفاعل و الإتصال الثقافي بينها لكن يكون ذلك التغير بصورة طبيعية أو عادية، و يقصد بذلك أن بعض العناصر الثقافية كالقيم و الرموز و المعتقدات تشهد تغيرا بطيئا نظرا لطبيعة تركيبتها و تجذّرها في الذاكرة الجماعية.

جدول 1. يبيّن توزيع العينة حسب الجنس والعمر

الجنس/العمر	الشيوخ فوق 60عام	الكهول 30-60 عام	الشبان 20-30عام	مجموع العينة
ذكور	40 (40%)	20(40%)	20(50%)	80
اناث	60(60%)	40(60%)	20(50%)	120
المجموع العام	100	60	40	200

المصدر: نتائج الدراسة الميدانية

إن جميع هذه النسب تدل على حصول تحولات هامة في المواقف، و الخروج من الدائرة القرابية العائلية الضيقة إلى عالم أوسع تحكمه دوائر متوسعة قائمة على المصلحة و الوعي بالإختلاف (بوطالب 2002، ص91).

و من بين الأمثلة الشعبية التي التي تعطي أهمية للزواج الخارجي و التي تمجّد البرّاني:

- اللي ياخذ من بنات خوه يبكي و الناس يعاونوه
- إبعد بعيد تلقى الحرمة في الإيد

و ما تجدر الإشارة إليه هو أن منطقة الجنوب الغربي التونسي عرفت ظاهرة الزواج الخارجي منذ فترة بعيدة، وحتى داخل المجموعات القبلية المنغلقة و المتشددة في قيمها الإجتماعية و الأخلاقية (بإعتبارها تنتمي جميعها لقبيلة الهمامة التي عرفت بين القبائل الأخرى بشهامة رجالها و شدة طباعهم نظرا لمعانقتهم بإستمرار للصحراء و الأراضي الوعرة).

و كل من يرحل بين ثنايا الشعر الشعبي يجد أن الأغاني الشعبية المتداولة بجهة الجنوب الغربي التونسي تحمل في طياتها الكثير من الرموز الثقافية المتناولة في بعض محاورها لظاهرة الزواج، فالأغنية عادة ما رافقت الإنسان في كامل مناسباته المفرحة و عبرت عن عواطفه و أحاسيسه الفردية و الجماعية، يتحدث الأستاذ عبد الحميد يونس عن أهمية الاغنية الشعبية و دورها في تنقّل الرموز الثقافية و تداولها بين أفراد المجموعة الواحدة فيقول: "صحبت نشأة الغناء نشأة الإنسان، و الغناء غريزي في كا شعب، إنه لون من ألوان التعبير عن حياته، كما يكون تعبير الألفاظ عن المعاني ساذجا و بسيطا في بدء حياة الشعوب يكون غناؤها ثم يتطور إلى التهذيب طبقا لتطور البيئة الإجتماعية و الثقافة المرتبط بها، والغناء تعبير عن الشعوب و طبائعها، وهو جزء من حياتها المادية و المعنوية معا " (يونس1992، ص 15).

وقد ردت في العديد من القصائد الشعبية المدونة بعض الأبيات تتحدث عن قيمة زواج البراني مثل قول الشاعر:

عجبتني من ساس قديم وجا العاشق برّاني

كما كان الأفراد يعتقدون في سلامة الزوجة البرانية من الأمراض الوراثية و أنها معافة من كل العلل و لم يزرها أي طبيب في حياتها، وهو ما يؤكده قول الشاعر الشعبي:

لا مرضت و لا طبيب وصلها و لا علتها أجراح (العيساوي، مرجع سابق، ص 25).

جدول 2. موقف أفراد العينة من الترابط الزيجي بين العكارمة و القصارة

الجنس/الموقف	متين		نسبي	%	ضعيف	%	غائب	%	لا أعلم	%	مجموع العينة
الإناث	48	40	18	15	17	14.1	9	7.5	28	23.3	120
الذكور	30	37.5	16	20	14	17.5	5	6.2	15	18.7	80
المجموع العام	78	39	34	17.5	31	15.5	14	7	43	21.5	200

المصدر: نتائج الدراسة الميدانية

في الوقت الذي تؤكد فيه نتائج الدراست الميدانية أن الزواج القرابي في بلدة القصر قفصة بدأ يتلاشى و يضعف بسبب التحضر وبروز قيم الحداثة و بالتالي التوجّه نحو المزيد من التعبير عن الشخصية الفردية المستقلة عن المجتمع الذكوري المنغلق، يلاحظ إستمرارية إعتقاد البعض من سكان هذه البلدة في الأفكار التقليدية التي تمجد الزواج الداخلي و تعتبر الأنسب في تحقيق سعادة الفرد و المجموعة، فمن بين المستجوبين نجد أن نسبة 17% الإناث تعتقد في وجود علاقات زيجية ضعيفة بين القصارة و العكارمة بمعنى أن شيئا لم يتغير و ظاهرة الزواج على حالها منذ تراخ تأسيس منطقة القصر و إستقرار مختلف المجموعات الإثنية على أرضها، تقول إحدى العكرميات في هذا

الشأن " إن الكسبة حارمة على شوارب العكارمة " أي أن العكرمي لا يتزوج بغير العكرمية (العكرمية بنت الأشراف)، كما أن القصرية لا تتمتع بالزواج من العكرمي ".

كما أكدت نسبة تقارب 14% من الذكور أن علاقات المصاهرة بين العكارمة (الوافدون الجدد) و القصارة (السكان الأصليون) ظلت في مستوى ضعيف بسبب ما أسموه " بالنعرة" أي عدم قبول كل من الطرفين الزواج من الآخر البراني، و من بين الأقوال الإجتهادية المنتشرة عند بعض الأفراد من فرقة العكارمة و تؤكد هذا الموقف نجد ما هو محتواه:

- الشريفة ما تخذش البرَة
- مصري و لا قصري

و هو إعتقاد قديم لدى فرقة العكارمة يمنع إرتباط إحدى بناتهم بالقصري حيث يرون أنهم (العكارمة) ينحدرون من أصل شريف بينما القصارة هم خليط من الأجناس و أصولهم غير ثابتة " كانوا يأكلون لحم الكلب حسب إعتقاد العكارمة "، إذا لهم شرف الزواج حاليا من العكرميات، و هي ظاهرة (الزواج الخارجي) بدأت تبرز بفعل التمدّن ووجود علاقات إجتماعية جديدة تتسم بدرجة أكبر من التحرر و الإنفتاح على الآخر. كما برَر بعض الأطراف هذه التبادلات الزيجية بتحول السلطة من الآباء إلى الأبناء، الذين أصبحوا قادرين على التحكم في مصيرهم بأنفسهم و بالتالي لهم الحق في إختيار الشريك المناسب دون التمسك بفكرة الإرتباط الدموي أو القرابي.

إن ما تجدر الإشارة إليه من خلال المعطيات البيانية الواردة في الجدول هو إستمرارية ظاهرة الزواج العائلي، و تواصل فكرة " رفض الآخر " (نسبة 9% من الإناث و 5% من الذكور) رفضا تاما عند البعض من سكان القصر، فعلى خلاف بقية الفرق الإثنية في هذه المنطقة كان أولاد سيدي عمر بن عبد الجواد يرفضون تزويج بناتهم من خارج العائلات العكرمية (أنظر سلالة عكارمة الزاوية)، و يبرَر هؤلاء هذا الرفض بأنه السبيل الوحيد للمحافظة على قدسية و نقاء الدم داخل مجموعتهم البشرية، وهم بذلك يعارضون تقدَم الآخر أو الغريب لطلب يد الفتاة العكرمية حتى لا تختلط "دماء الشرفة" ببقية السلالات الأخرى فقد بقي عكارمة الزاوية و لفترة ليست بالبعيدة يغيبون شرط المهر " الصداق" عند حالات الزواج الداخلي أي الزواج ببنت العم، وهو إجراء أو إستراتيجة من أجل تدعيم و نشر هذا النمط الزيجي بين الشبان و الفتيات من نفس " العرق "، كما يسمح بتبادل الزيجات مع المجموعات البدوية الأخرى ذات القرابة بأحفاد سيدي عمر، و هو ما أكدته دراسة المنذر كيلاني لقرية القصر و التي يقول فيها عن فرقة العكارمة" إن الزواج من بنت العم أو ولد العم يتجسد في صورة أولى و هي الزواج من نفس الدار....ثم الزواج بين فرعين متقاربين و في مرتبة ثالثة الزواج بين أفراد من الزاوية و أخيرا الزواج بين العكارمة بصفة عامة (kilani1992, p233).

و نجد في جهة الجنوب الغربي التونسي (كبقية الجهات الأخرى طبعا) العديد من الأمثلة الشعبية التي تفضل الزواج الداخلي أو العائلي و تراه مهمَا في الحفاظ على وحدة العائلة و تماسكها، إضافة إلى كونه يخلق جوا من اللحمة و الإنسجام بين القرينين و ذلك يساعد على تخطي المصاعب و المحن الدنيوية، و نذكر على سبيل المثال البعض منها:

- الماء اللي ماشي للسدرة الزيتونة أولى بيه.

- وين دمّك وين همّك.

إن ظاهرة الزواج الداخلي القائمة على القرابة الدموية تعتبر ظاهرة قديمة إرتبطت بقيم المجتمع العربي التقليدي، و قد شجعها المستعمر الفرنسي في تونس لأنها تخدم مصالحه في تغذية الإنقسامات الإثنية و خلق الصراعات بين مختلف المجموعات القبيلة. لكنها تستمر اليوم ولو بدرجة ضعيفة في جهة الجنوب الغربي التونسي لتواصل بعض العوامل المسببة لوجودها مثل تحجّر العقلية عند بعض الأفراد و عدم تغيرها رغم التحولات السكانية و الحضرية التي عرفتها منطقة القصر، فهذه العقلية لا زالت تؤمن بهيمنة المجتمع الذكوري و خضوع المرأة لسلطة العائلة و لقراراتها حول موضوع الزواج، في نفس هذا الإطار يتحدث الأستاذ محمود الذوادي عن بعض الحالات الإجتماعية التي تشهد وضعية مهمشة للمرأة العربية بقوله: " المرأة العربية التي تتضح معالمها في عقل الرجل في هذا المجتمع العربي الذكوري منذ ميلادها الأول، و هذه الرؤية الدونية لجنس الأنثى يبدو أنها متجذرة في صلب شخصية الرجل العربي ".(الذوادي 1994).

4- نتائج الدراسة

إن العامل الأساسي الذي قد دعّم فكرة الإعتقاد في الزواج القرابي عند البعض من سكان القصر هو وجود الفوارق المادية بين العائلات القصرية من ناحية و العائلات العكرمية من ناحية أخرى، فرغم إمتلاك أحفاد سيدي عمر لبعض الأراضي و الهناشير في واحة القصر إلا أن الملكية الواسعة ظلت دائما لصالح العائلات القصرية من فرق الشقران و الشوامخ و غيرهم و ربما حالت هذه الفوارق المادية دون نجاح بعض المحاولات الزيجية التي كانت منتظرة بين القصارة و العكارمة.

و ما تجدر الإشارة إليه كذلك هو أن من بين أفراد العينة المستجوبة من الزائرين الذين يجهلون طبيعة العلاقات التي تربط مختلف المجموعات الإثنية ببلدة القصر، و خاصة العلاقات الزواجية بين العكارمة و القصارة (موضوع الدراسة). فقد أكدت نسبة 18.7% من الذكور أنها لا علم لها بهذه المسألة،(ترتفع هذه النسبة عند الإناث إلى 32.3 %) و أنها لاتحمل الإجابة الواضحة و المنطقية حول وجود أو غياب علاقات المصاهرة بين "الشرفة" و "البلدية"، وتفسير ذلك هو أن هذه الفئة من العينة عادة ما تكون منتمية لجهات بعيدة عن ولاية قفصة و بذلك من المنطقي أن يجهل البعض من هؤلاء طبيعة العلاقات الإجتماعية السائدة في بلدة القصر (بالرغم من وجود البعض الآخر من نفس الفئة و الذي يعرف الكثير عن العائلات القصرية و عن العلاقات الزيجية التي تربط بينها) هذه النسبة من المستجوبين و المستجوبات (الذين يجهلون المسألة) يمكن أن ينتموا لفئة عمرية شبابية و تعوزها الخبرة الزواجية و معرفتها الكاملة بطبيعة العلاقات التي قد تجمع بين مجموعات إثنية مختلفة و عدم معرفتها كذلك بخصوصية النسيج الإجتماعي في بلدة القصر.

إن المجتمع المدروس و رغم مظاهر التغير فيه ظل محكوما في تركيبته ببعض المقومات التقليدية من بينها مؤشر القرابة، وهو مؤشرا من مؤشرات إستمرارية المحددات التقليدية للمجتمع القبلي، فبالرغم من أن الإهتمام بالأنساب و بالقرابة يمثل ظاهرة عامة في المجتمعات العربية الإسلامية الريفية لما تحققه القرابة من مصلحة للأفراد و

الجماعات، إلا أن المؤشر أصبح في المرحلة الحديثة ضعيفا بسبب ما لحق بهذه المجتمعات من تغير مستمر (بوطالب 2002، ص458).

هذا كله يوضح أن التغير الصناعي و الحضري السريع (ما نتج عنه من توفر الخدمات و المرافق) و ما صاحبهما من أفكار دخيلة و قيم عقلانية فردانية تقوم على المصلحة تتناقض مع النظام القبلي الذي يقوم على مبدإ التحالف و التعاون و التضحية في سبيل الغير، و هذا التناقض تسبب في ضعف و تلاشي النسق التقليدي لنظام القرابة، و قد نتج عن ضعف نسق القرابة القبلي تغير في التركيب العائلي، فالعائلة التونسية الآن في حالة تحول مستمر من عائلة ممتدة إلى عائلة نووية تتكون من جيلين أو ثلاثة أجيال، و هذه العائلة تهتم بأمورها و شؤونها المعقدة أكثر مما تهتم بسلالتها القرابية و أهمية حسبها و نسبها (بوغانمي، مرجع سابق ص 147).

إلا أن هذا الزواج الخارجي الذي أصبح يسيطر اليوم على قائمة التبادلات الزيجية في المجتمع التونسي قد يواجه عدة معوقات إجتماعية و ثقافية و إقتصادية لأنه لا زال يلاقي رفضا واضحا من طرف العديد من الفئات الإجتماعية التي تأبى التغيير و التحول في سلوكياتها و معتقداتها. و من بين العوائق التي يمكن أن تواجه الزواج الخارجي أو الأجنبي هو أن تتعرقل عملية التكيف الزوجي إذا تعرض الزوجان " المختلطان " إلى ضغوط خارجية من المجتمع الذي يعيشان فيه و القرابة التي ينتميان إليها (Burgess, Locke1971, pp524-525).

كما أن فكرة الزواج هذه لا تروق للوالدين، فوالدا الفتاة يعترضان على زواج إبنتهما من " أجنبي" لا سيما في بداية فترة الحب و الغزل، ذلك أن الوالدين يعتقدان بأن مثل هذا الزواج سيجلب العار و الذل للعائلة و يفقدهما ابنتهما بمغادرتها أسرتها الأصلية. أما والدا الشاب فيعترضان على فكرة زواج ولدهما من إمرأة "أجنبية" حيث أن مثل هذا الزواج يتناقض مع وحدة و صلادة الأسرة كمنظمة إجتماعية و يجلب العار و الشعور السلبي من الآخرين للعائلة(الحسن1982، ص77).

تتعرض الأسرة القائمة على الزواج الخارجي إلى ضغوطات داخلية (كما أسلفنا الذكر) و كذلك إلى ضغوطات خارجية مصدرها المحيط الإجتماعي القريب من الزوجين، فالعائلة الأصلية للزوج مثلا (لا سيما أم الزوج و بناتها) لا يميلون نحو تكوين علاقة طيبة مع الزوجة "الدخيلة" بسبب وجود تباين في السلوك و المصالح و القيم و المقاييس و الأخلاق.

من المعوقات الإجتماعية الأخرى التي عادة ما تعترض الزواج الأحنبي و التي يمكن الإشارة إليها في نهاية هذا الحديث هي أن هذه النمط الجديد من التبادلات الزيجية قد يقلل من فرص الزواج عند بنات العائلات الأصلية بالإضافة إلى كونه يزيد من معدلات الطلاق بين صفوف المتزوجين أصحاب الأفكار الجديدة مما يؤدي إلى إضطراب وحدة و تماسك هذه العائلات.

إن العلاقة بين العائلة المنشأة على أساس الزواج الخارجي و أقاربها يمكن أن تنمو و تزدهر إذا برهن كل طرف من الأطراف بأنه نافع للطرف الآخر، فلو قام الأقارب مثلا بمساعدة العائلة الجديدة و حماية مصالحها و عدم التدخل في شؤونها - إلا إذا إقتضى الأمر ذلك - مع إحترام الزوجة "الأجنبية" و تقدير أطفالها و تشجيع العائلة برمتها على التكيف و الإندماج داخل العائلة الموسعة، ومقابل ذلك تقوم العائلة الصغيرة بمساعدة الأقارب ماديا و معنويا و

المشاركة في أفراحهم و أتراحهم و إحترام أسلوب حياتهم و تبادل الزيارات معهم، فإن العلاقات بين الطرفين لا بد أن تقوى و تتوطد، وهنا تتمكن العائلة القائمة على الزواج غير القرابي من تحقيق درجة مهمة من التكيف الإجتماعي و الثقافي.

خلاصة القول أن مؤشر القرابة ببلدة القصر شهد ضعفا واضحا في مضمونه و في صوره المختلفة التي يمكن أن يتجسد من خلالها مثل علاقات النسب و المصاهرة، و ظل محصورا في بعض العقليات و الذهنيات المتحجرة التقليدية التي تقف حاجزا أمام تطور العلاقات الإنسانية و توطدها، فالتغير الحضري الذي عرفته المدن العربية أضعف بشدة مؤشر القرابة الذي ظل و لفترة مطولة يحكم العلاقات الزواجية في مجتمعاتنا، يقول روبارت بارك في كتابه " التغير الإجتماعي و التفكك الإجتماعي" نحن نعيش فترة من التفكك الإجتماعي فكل شيء في حالة تهيج و كل شيء يبدو أنه عرضة للتغير، و أي شكل من أشكال التغير ينتج عنه تحول و تبدل يمكن قياسه في روتين الحياة الإجتماعية يميل إلى أن يحطم العادات التي يقوم عليها التنظيم الإجتماعي القائم وكل وسيلة جديدة تؤثر في الحياة الإجتماعية و النظام الإجتماعي لها تأثيرها الواضح في التفكك"(Robert,1975, pp38-39).

كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في قوله: " ثم وقع الإختلاط في الحواضر مع العجم و غيرهم و فسدت الأنساب بالجملة و فقدت ثمرتها من العصبية فأطرحت "(ابن خلدون1956، ص130).

5- خلاصة

أثبتت الدراسة الميدانية التي أجريت حول منطقة القصر قفصة و التي سلطت الضوء بالخصوص على سكان بلدة القصر(قفصة) أن العلاقات القرابية ظلت متواجدة داخل النسيج الإجتماعي لهذا المجتمع المحلي، لكن ضمن صور و أحداث تعتبر ضيقة و مقتصرة على بعض العلاقات و الفضاءات المحدودة، حيث خنقت متغيرات الحياة المعاصرة كل أوجه الحياة التقليدية بما فيها العلاقات القرابية وفي ضمنها التبادلات الزيجية. وبما أن الأسرة التقليدية تأثرت بالتحولات التي شهدها المجتمع ككل، فإن مفهوم الزواج سيتأثر حتما بالتغير الذي شهدته الأسرة و الذي تمثل في بروز الزواج الخارجي.

فمن بين أهم الخصائص التي يحملها النظام الإجتماعي كونه يتضمن على مر الأزمنة ثنائية الإستمرار و التحوّل، وهو لايستطيع أن يعيش بمعزل عن هذه الثنائية مهما إختلفت الأجيال التي تمر على هذا المجتمع " فالمجتمع هو دوما مجال للإحتكاك الدائم بين عناصر المحافظة و عناصر التغير، بين إرادة البقاء و الثبات، أي أننا لا نستطيع إختزال مجتمع في بعد واحد لأنه يحمل داخله أسباب إنتظامه و أسباب لا إنتظامه "(بوغانمي، مرجع سابق، ص79).

- قائمة المراجع

إبن منظور(1976): لسان العرب، دار صادر، بيروت، مجلد11.

حميدة بوغانمي (2001/2000): الثابت و المتحول في علاقات القرابة بالريف التونسي، قلعة. سنان نموذجا، رسالة الدراسات المعمقة في علم الإجتماع، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية بتونس.

عمر خليل معن (1983):الموضوعية والتحليل في البحث الإجتماعي، منشورات دار الأفق الجديدة، بيروت،الطبعة الأولى.

محمد السويدي (1991): مفاهيم علم الاجتماع الثقافي و مصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الدار التونسية للنشر.

محمد نجيب بوطالب (1988):التكوين الإجتماعي القبلي بين التغير والإستمرار، الجنوب الشرقي التونسي من الإدماج القبلي إلى الإندماج الوطني جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس أطروحة دكتوراه دولة .

محمد نجيب بوطالب (2002): القبيلة التونسية بين التغير و الإستمرار، الجنوب الشرقي من الإندماج القبلي إلى الإندماج الوطني، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية بتونس.

محمود الذوادي (1994): قراءة سوسيولوجية لقضايا النشوز و الشقاق و الطلاق بين الزوجين في القرآن، ملتقى في المعهد الأعلى للتربية و التكوين المستمر، 3- 4 فيفري، سلسلة مراجع نشر مركز الدراسات و البحوث الإقتصادية و الإجتماعية.

الموسوعة العربية الميسّرة(1987): إشراف محمد شفيق غربال، المجلد2، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

يوسف العيساوي (1987/1986): نماذج من الشعر الشعبي في الجنوب الغربي (جمع و تدوين و تحقيق)، رسالة ختم الدروس الجامعية، المعهد العالي للتنشيط الثقافي، بئر الباي، تونس.

Anne Christine Taylor (1991): Ethnie, Dictionnaire de l'éthnologie et de l'Anthropologie P.U.F, Paris.

Burgess, E.andH.Locke(1971): The Family , from Tradition to Companionship.New York.

Jacque Berque (1953): « qu'est-ce qu'une tribu NordAfricaine? », dans l'éventail de l'histoire vivante; mélange à Lucien Febre ; Armand Colin , Paris.

Mondher Kilani (1992): La construction de la mémoire; le lignage et la sainteté dans l'oasis d'Elksar ; Labor et Fides.

Park Robert (1975): Social change and social disorganisation, in stuart H. Traub and craig B. Little (eds) theories of deviance. Itasee peacock publishers.

Riadh Zgal (1992): Methodologie de recherche en sciences sociales-c.l.e, tunis.